دیزیره سقال

كتاب الشاهد
ويليه
كتاب ملوك الطوائف

منشورات ميريم

كتاب الشاهد
ويليه
كتاب ملوك الطوائف

دیزیره سَقال

كتاب الشاهد
ويليه
كتاب ملوك الطوائف

منشورات ميريم

منشورات ميريام

© ميغا هامو للإعلان والنشر

ص.ب: ٧٠١٦١ ـ انطلياس ـ لبنان

تلكس: LE ـ ٤٢٠٠٧

هاتف: ٤٠٦٤٩١(٠١) - ٤٥٠٠٦٢(٠١)

٤٢٩٢٨٤(٠١) - ٤١٤٩١٩(٠١)

الطبعة الأولى ـ ١٩٨٩

١ ـ كتاب الشاهد

«...I had seen birth and death,
But had thought they were different; this Birth was
Hard and bitter agony for us, like Death, our death.»

(T.S. Eliot)

«رأيتُ جميع الأعمال التي عُمِلَتْ تحت الشمس، فإذا الجميع باطل وكآبةٌ للروح...»

(سفر الجامعة)

«بابلُ، بابلُ، لقد غُسِلَ دماغُكِ من هاتِفِ الخيرِ، وفارقَتْكِ بلابلُ الحبِّ، ونَعَبَ على بئرِكِ العطشى بومُ الضجرِ. يَصِرّ الإلحادُ واللامعقولُ في فراغِكِ الحالِكِ، ويطنِطِنُ في مواخيرِكِ البشرُ كالذباب.»

(أنطوان غطاس كرم)

«Tous ces hommes avant moi, ils ont peut-être eu tort,
Sont-ils devenus Dieu par raisonnement?
Ils ont tué la pierre, l'oiseau, la mer,
Sont-ils devenus Dieu?»

(Nadia Tuéni)

«السيدُ المختارُ
يُتقنُ من صراعِ الفكرِ
حالاتِ التشنّجِ في الصريعْ
يُرغي بحبّ اللهِ والإنسانِ
والقيمِ التي تلِدُ الحضارَهْ
وأرى فروخَ البومِ
تنبتُ في ضميرٍ باعَ نَارَهْ
ومضى يبيعْ
لحمًا تبعثرَ في الشوارع
لحمَ لبنانَ «المخلّع» و«المنيعْ».

(خليل حاوي)

«ماذا أفعلُ بهذا الفرحِ الفاشل
سوى أن أعلّقه - كلما وقـعَ - على دولاب
الملابس».

(الياس لحود)

«أحْوالُ ثمودٍ،
تتأسَّسُ في دُكانٍ:
تاجرْ، واستعصمْ باللهِ، ولا تتسيَّس»

(أدونيس)

ـ قصيدة الشاهد ـ

«الشاهد... الشاهد... الشاهد... إنَّ العالمَ
الذي يحتاجُ فيهِ المرءُ إلى شاهد هُوَ عالمٌ خَرِبٌ
سَيِّء الإدارة.»

(أبسن)

مِنْ أينَ يأتي الخارجونَ من الضَّبابِ إليَّ
والقطعانُ تَحْشُدُ زَحْفَها عَبْرَ الحقولِ؟
بَيْنَ القَطَا والدَّمْعِ لَيْلَكَةٌ
وأحزانٌ تَهُبُّ على مسافاتِ العويلِ
بَيْنَ القَطَا والدمْعِ يَرْفُو الظلُّ أعْمِدَةً ويطرحُ صَمْتَهُ

خَلْفي. تُنَظِّرُني السماءُ، وعَبْرَ خَطْوِ الليلِ بركانٌ يُحَمْحِمُ.
قلتُ: لنْ يَلِدَ المساءُ، وقلتُ: يا خَبَرًا دَؤوبًا هاجَرَتْ
عَجَلاتُهُ في الصَّبْرِ، يا صَبْرًا دَؤُوبًا، قُلْتُ، وَلْيَبْقَ السَّمَنْدَلُ
خَلْفَ حُفْنَةِ أَسْهُمٍ. وتَطِيرُ في أُفُقِ الحديدِ بَقِيَّةٌ حَرَّى،
يُدَاهِمُ جُرْحِيَ الصبّارَ، والطرقاتُ تَمْسَحُ ما تَخَلَّفَ من
حُطامِ الوَهْجِ عَبْرَ مدينةٍ أَزِفَتْ. أنا الطُغيانُ أُشْعِلُ في
رداءاتي رمادَ المارِقينَ وأنتضي ذُعْرَ الفُلُولِ.

بَيْنَ القَطَا والدمْعِ حشرجة تَهُبُّ كما الفريسةُ تَحْضُنُ
الصَّبْرَ الذَّبيحَ، كما النَّوارِسُ تَسْتَكِينُ إلى ثُغُورِ البَحْرِ. قالَ
الصمتُ لي:

مِنْ أَيْنَ يأتي الخارجُونَ من الضَّبابِ إليَّ
والقطعانُ تَحْشُدُ زَحْفَهَا عَبْرَ الحقولِ؟
من أين يأتي الخارجونَ من الذُّهُولِ إلى
الذُّهُولِ؟

وإذا السماءُ تَميعُ بين يديَّ والأشياءُ تَنْظُرُ كالفريسةِ.
تَرْقُدُ الأشلاءُ خَلْفَ القَتْلِ حازِمَةً حبائِلَها، ويهوي في
غيومِ المعدِنِ المَصْهُورِ رَيْحَانُ الخَطايا ـ قلتُ: عودي، يا

نُفُوسُ، من السكينةِ، لن تواكبَكِ النجومُ، ولن يُضامَ
الصبرُ في عَطشِ الطفولَةِ، وَلْيَهُبَّ القَفْرُ حَوْلَ قُرُنْفُلٍ
حَجَبَتْهُ أَنْفاسُ العناكِبِ.

لا
يُضامُ
الصَّبرُ

يا نفسُ اهدأي؛ إنَّ الزوايا ترتدي دِفْلى المسافاتِ.
آهدإي يا نفسُ، وَلْتَهْوِ العناصرُ في المساءِ.

بين القَطَا والدمعِ لَيْلَكَةٌ
وأحزانٌ تُضَاجِعُ شَوْكَهَا فَوْقَ الدماءِ

بين الصدى والصبر حقلُ يَعَاسِبٍ. يا نفسُ، يَدْخُلْ
جرحِيَ الصبارَ، والرَّهْجُ المُحاصَرُ بالنحاسِ يَدُقُّ أبوابَ
الفريسةِ. لن يَهُبَّ دَمي ـ أنا الطغيانُ أُشْعِلُ في رداءاتي
رمادَ المارقينَ وأرتدي دِرْعَ الشَّفيرِ. ألا آهدأي يا نفسُ،
عادَ القلبُ مُشْتَعِلاً بمعدنِهِ، آهدأي يا نفسُ، وَانْتَهِبي
الفُحُوْلَةَ في قناعٍ مِنْ ضِياءِ

مَنْ قالَ إنَّ الخارجينَ من الحطامِ
تَمُرُّ أَرْجُلُهُمْ بقلبي

والمساءُ يخالطُ الأشياءَ؟ يا نفسُ آهدأي. هَمَدَتْ شفاهُ الروحِ، وآنْتَعَلَ السديمُ حديدَهُ.

من قالَ إنَّ الخارجينَ من الحطامِ
تمرُّ أَرْجُلُهُمْ بقلبي؟

لا ينامُ الفجرُ إلا خاشِعًا بذهولِهِ؛ وهناك حيثُ تَحُطُّ أعمدةُ الرُّخامِ تقومُ مَذْبَحَةٌ...

بَيْنَ القَطَا والدَّمْعِ لَيْلَكَةٌ
وأَحْزَانٌ تُضَاجِعُ شَوْكَهَا

سَأغيبُ... أعرِفُ أنَّ وَجْهِيَ سَوْفَ تَمْسَحُهُ الصواعقُ، أنَّ قلبَ الأرضِ يَعْرَقُ. مَنْ، تُرى، يبقى اللَّجوج، ومن يَحُطُّ بِعَصْفِهِ مُتَرَنِّحًا؟

بيْنَ الصدى والليلِ زَوْبَعَةٌ مِنَ الصَّستِ، آنتظارٌ غارِقٌ في الأرضِ؛ بين مَحاجِري والدَّمْعِ خَيْطٌ مِنْ رَذَاذِ الحِقْدِ ـ يا نفسُ اهدإي... سَأَغيبُ حتى في سديمٍ مُوغِلٍ في الثَّلْجِ، أَتْرُكُ مَطْرَحي للوَعْرِ، يا نفسُ اهدأي. سَأغيب

في «صَنِّيْنَ» مُخْتَرِقًا كما يَتَدَافَعُ الوَعِلُ المهاجِمُ عَبْرَ أَنْقَاضٍ.

أنا الصبرُ الطويلُ،
أنا النحاسُ،
أنا السَّمَنْدَلُ والقَطَا وجميعُ أعمدةِ المسافةِ والخشوعُ
أنا الجليدُ،
وأنا المطارِقُ والضجيجُ
أنا الشواهِدُ والحديدُ،

حتى فضاءُ الثلجِ مُنْطَرِحٌ معي، حتى سديمُ الجردِ وَهْوَ يُطاردُ العُشْبَ المطرَّزَ بالعقيقِ وبالفناءِ.

وأظلُّ في «نَيْسَانَ» جُرْحًا، في صفيحِ الليل، في الزَّهْرِ الذي انطرحَتْ بقاياه نُحاسًا أو جَليدًا. لم يَكُنْ للفجرِ أنْ يدري وصاريةُ البروقِ تَهُدُّ حُنْجُرَةَ التراتيلِ الطويلةِ. قُلْتُ: يا نفسُ آهدأي أوْ يستجيبَ القفرُ للطغيانِ؛ يا نفسُ اهدأي حولَ الصدى كي يَسْتَكِيْنَ هُبوبُكِ الأعمى على نهرٍ بلا مجرىً وماءِ.

ولْيَبْقَ في ظِلِّ الطَّواغِيْتِ البليدةِ يَأْسُنا. لكنَّني أَضْرَمْتُ

في وَجَعِ الجَنَادِلِ مُقْلَتِي، وَتَهَدَّلَت عيني على ليلٍ بحجمِ الكونِ:

هذا موطني!

سَأغيبُ في «صَنّينَ» مُحترقًا كما يَتَدَافَعُ الوَعِلُ المهاجِمُ عَبْرَ أَنْقَاضٍ، وبَيْنَ العينِ والدَّمْعَاتِ صَحْراءُ مِنَ الكبريتِ... يا نفسُ آنتظارٌ طامثٌ ثُمَّ انتحارُ:

لَنْ يَسْتَفِيقَ الليلُ. حتى في غُيومِ الثلجِ، حتى في الصدى وَعْرٌ بَوارُ،

وأغيبُ مُحْتَرِقًا، ومُحْتَرِقًا كما يَتَدَافَعُ الوَعِلُ المهاجِمُ عَبْرَ أنقاضٍ أراوحُ ظامثًا. قلبي فُتَاتٌ، وآنْهِزَامٌ في غيومِ مَحَاجِرِي. قلبي فُتاتٌ والصدى أَرْضٌ - أراوحُ ظامِئًا بَيْنَ المشيمةِ والمشيمةِ مُسْتَكينًا بالجليدِ: أنا المصيرُ.

وأنا التراجُعُ والمساءُ وكلُّ أعيادِ الفريسةِ وَهْيَ تَنْتَظِرُ الضَّياعَ، أنا النَّفيرُ

مُتَهَشِّمًا بين الجَنَادِلِ والشُّطوطِ،
أنا الجبالُ، أنا الشفيرُ

وأنا آندِلاعَاتٌ تُبَارِكُ مَعْدِنًا حتى انهيارِ الصمتِ، تَبْرُكُ في مَطَارِحَ داكناتٍ بَيْنَ أفيونٍ وهاجِسِ نَهْضَةٍ وَهْمَى،
أنا الطغيانُ أُشْعِلُ في رداءاتي رمادَ المارقينَ وهاجسي ذُعْرٌ كبيرُ.

سَأغيبُ، لكنْ كَيْفَ؟ هذا موطني - حتى آنْدِلاعاتُ الجليدِ تموتُ، حتى المَعْدِنُ المصهورُ. آآآآهِ! قَدْ أنامُ على الشَّفيرِ فلا يراني مارِقٌ؛ قد أَصْدَعُ الوَجَعَ المُدَنْدِنَ، لا يراني مارِقٌ، قد أَسْتَكِينُ على الصدى...

بَيْنَ الجليدِ، هُناكَ، في دَغْلِ الكآبةِ، حَيْثُ يَمْتَدُّ الصَّقيعُ
يَغْفُو بريقُ الوَعْرِ مُنْسَدِلَ الضفائِرِ فَوْقَ ليلٍ ثُمَّ يَلْتَهِبُ الرَّبيعُ

ما أَصْدَقَ الهذيانَ! ما أَصفى الثلوجَ على العيونِ! أنا آشتعالٌ صامِتٌ في قَلْبِ مِحْرَقَةٍ، أنا الطُّغْيانُ أُشْعِلُ في رداءاتي رمادَ المارقينَ وَأَسْتَبِيْ ذُعْرَ الصَّدى. يا آلصَّاعِدَ

الجَبَلَ البَتولَ إلى مدىً مَطْلِيَّةٍ آفاقُهُ بالفحمِ، يا آلآتي من الهَذَيانِ.

هذا موطني!

فَحْمٌ على فَحْمٍ يُرَاوِحُ في المدى
وتَظَلُّ تركُضُ عَبْرَ صحراءِ الرمالِ فَريسةٌ
يَنْهارُ بَيْنَ ضُلوعِها رُعْبُ الصدى.

نيسان ـ ١٩٨١

ـ عصر المهرج ـ

«كلَّما اتَّسَعَتِ الرؤيا ضاقَتِ العبارة».
(النفّري)

رَجُلٌ
يَتَكَسَّرُ
في
أرضٍ
تَتَكَسَّرُ
حَوْلَ
ترابٍ
يَتَكَسَّرْ...

هذا النَّسْجُ من الدَّمْعِ يُرافِقُ نَهْبَ الأرضِ. سأَغْرَقُ
في الأَمْواجِ إلى آخِرِ جُمْجُمَةٍ إلا خَبَرًا يَزْحَفُ نَحْوَ الشَّرْكِ
وَئِيدًا، إلا وَجْهًا يَثْقُبُ حُزْنَ البحرِ. سَأَغْرَقُ
في
الأمواجِ
إلى آخِرِ جُمْجُمَةٍ...

وَيَظَلُّ «الغَامِضُ» يَنْهَضُ من أَحْشَاءِ الزمنِ المكسورِ... أنا المائِدَةُ الكبرى والجَشَعُ البَشَرِيُّ - سَأَرْتَاُ كُلَّ مدارٍ بالعَطَشِ الأَرضيِّ، سَأَجْعَلُ في هَلَعِ الأيامِ حَرِيقًا، وَسَأَنْتَهِبُ العُشْبَ بِلَيْلٍ مَحْرُوْقٍ حتى تَتَهَدَّلَ أعضائي.

وَسَأَتْرُكُ كلَّ نُحاسٍ يَدْخُلُني
وَسَأَتْرُكُ كُلَّ حديدٍ يَدْخُلُني
وَسَأَتْرُكُ كُلَّ أَجِيجٍ يَدْخُلُني

وَسَأَغْتَصِبُ الوحشيَّ إلى آخِرِ مَهْزَلَةٍ... لكنَّ الفجرَ يُراوِحُ في رَغْدٍ مَسْلوبٍ، والعُشْبَ الأَعْرَجَ يَفْصُلُ بَيْنَ الجنسِ الواحِدِ؛

وَعْلاً يَضْرِبُ فَوْقَ الموجِ المُتَكَسِّرِ والأرضِ الصَّلْصَالِيَّةِ
أَرْفَعُ جامحتي
وأَنامُ لكي يبقى الصَّلْصَالُ مَديدًا،
وأَنامُ لكي يَتَدَافَعَ فيَّ البَجَعُ المَسْعُورُ،
أَنامُ لكي يُشْعِلَني العُرْسُ الدَمَوِيُّ
أَنامُ أَنامُ أَنـاااااُ بَعيدًا في أَحْشَاءِ «الغامِضِ»، كي أُحْرِقَ نَعناعَ الوَعْرِ على مائدةِ الجَزَّارِيْن.

وبَعيدًا يَنْطَفِىءُ الجُرْدُ، بَعيدًا يَرْهُو البحرُ على غَمْغَمَةِ المعدِنِ؛ يُشْعِلُني الفِطْرُ فأختمُ قلبي، لكنَّ العَصْفَ يُداهِمُ هذا الختمَ ويبقى صَدَأً حَوْلَ لَبَالِبَ داميةٍ تَتْرُكُ في الأجواءِ رَنِيْنْ

وأَنامُ لكي يتهدَّلَ فيَّ الصدأُ المركومُ
أَنام لكي يُحْرِقَني العرسُ الدمويُّ
أَنامُ أَنامُ أَنـاااااُ بعيدًا في أَحْشَاءِ «الغامِضِ»، أَذْبُلُ حَوْلَ مرايا المذبَحَةِ الأهليةِ أَذْبُلُ حَوْلَ الجِرْسِ الأَكْثَرِ جِرْسًا، وأُنادي:

«يا آلداخلَ في البرقِ الأعمقِ،
يا آلصاعدَ من مذبحةِ الجِيْلِ»
أُنادي: «فَلْتَهْدَأْ هذي القممُ الوحشيَّةُ والصوانُ الوحشيُّ، لِيَهْدَأْ هذا العصفُ الوحشيُّ، لِيَهْدَأْ كلُّ سديمٍ في الجاهِحَةِ الكُبرى...»

لكنَّ الصمت الأبديَّ يراوحُ في نَرْجَسِهِ، وتميدُ الأشياء على خَزَفِ الأَرْضِ الأحمرِ. آهٍ، آآآآهٍ! وَأُدَاهِمُ هذا العشبَ

وأتركُ كلَّ صهيلٍ يَدْخُلني
أَتْرُكُ كلَّ نحاسٍ يدخلني
أَتْرُكُ كلَّ أجيجٍ يَدْخُلني
أَغْرَقُ في الأمواجِ إلى..
آخِرِ جُمْجُمَةٍ...

هذا النَّسْجُ مِنَ الدَّمْعِ يُرافِقُ نَهْبَ الأَرْضِ - تغيمُ الرؤيا، وتطالعني جَزْرَةٌ حَوْلَ تُرابٍ مَسْكُونٍ بالنَّهْبِ. يعودُ إليَّ ضبابُ الصَّلْصَالِ، وَتَنْهَضُ «بيروتُ» مكلّلةً باللعنةِ. فَلْتَهْدَأْ هذي القممُ الوَحْشِيَّةُ والصوانُ الوَحْشِيُّ، لِتَهْدَأْ

هذي الأرضُ على سَيْفِ مَذْهُولٍ...
تَتَحَرَّكُ جامِحَةً وتعودُ الرؤيا:

رجلٌ
يَتَكَسَّرُ
في
أرضٍ
تَتَكَسَّرُ
حولَ
ترابٍ
يَتَكَسَّرْ

ـ كيمياء موت لعذاب سيزيف ـ

وَحْـدي في القَارِعَـةِ المسكـوبَـةِ حَـوْلَ الصمتِ
المُتَهَدِّمِ،
وحدي في الصاريَةِ المكسورَةِ،
وحدي في عاصِفَةِ المعـدِنِ،
وحدي في السَّبْخَةِ،
وَحْدي...

أَتَرَبَّعُ تَحْتَ الشَّمْسِ الصوَّانيَّةِ حَيْثُ يَهُلُّ رمادُ صَدايَ
وأُعْلِنُ بَدْئي مِنْ حَجَرٍ كِلْسِيٍّ؛ لكنَّ الوَقْتَ يَمُرُّ عَليَّ بطيئًا

ويمرُّ الليلُ
يمرُّ الليلُ
يَمُرُّ الصَّخْرُ
وأُعْلِنُ بدئي:
١ - من أرضٍ تَتَناثَرُ تَحْتَ ضَبابٍ أعمَى
٢ - من حَجَرٍ يَتَسَرَّبُ عَبْرَ وُجُوهٍ ثُقِبَتْ
٣ - من ذاكرةٍ تُمْسَخُ ذاكرةً...

وهناكَ أرى غاباتِ الرملِ تُحاصِرُ جُمْجُمَةً، وهواءً يَنْسُجُ مَهْزَلَةً. لكني أبقى حَيْثُ أَشُدُّ العُرْيَ إلى الأنهارِ، وأحملُ «بيروتَ» ثِياباً مَزَّقَها الفَيْءُ القاتِلُ - أحملُ هذا الصخرَ.. وأبقى...

أَلظلُّ يقومُ من الصورِ الشَّوْهَاءِ ويحملُ بَيْنَ مفاصِلِهِ أَحْزَانًا فارِغةً وتُرابًا وَحْشِيًّا. وَيَظَلُّ هبوبُ المعدنِ يَطْرُدُ فِكَرَتَهُ البيضاءَ، ويُمْعِنُ في قُداسِ «الغامِضِ». لكنَّ النِّسْوَةَ يَخْرُجْنَ عرايا، وعرايا يَدْخُلْنَ الصلصالَ، عرايا يرتأَنَ «الغامضَ» بالغامضِ -
لن يبقى صبرٌ

إلا
مكسوّا
بدماهُ!

أرى «بيروتَ» تُحيطُ فضاءَ الطُّحْلبِ حَوْلَ نُحاسِ الأُفْقِ. سأبقى وَحْشِيًّا أَتَشَرْذَمُ بين جِراحِ شِهابٍ وصُدُوعٍ في صحراءِ القَلَقِ. سأبقى حتى يَتَلَوَّنَ وجهي بالأَرْضِ، وأَبْتَلِعَ الظلَّ كما يفترعُ الزحفُ مسافاتِ الأقصى...

يَشْتَعِلُ الكيدُ على ذاكرةٍ جَوْفاءَ، وتَثْقُبُ الأرضُ. يَغِيمُ «الغامضُ» مُشْتَعِلاً بمسافاتٍ فارغة، ويقوم الفَحْلُ إلى النِّسْوَةِ نَحْصِيًّا؛ لكنَّ البردَ يَلُفُّ مفاصِلَهُنَّ، وَيَتْرُكُهُنَّ بغاباتِ المعدِنِ مُنْتَظِراتٍ، أَعْيُنُهُنَّ تَنامُ على الذَّكَرِ الملجومِ - يَصِرْنَ إليهِ عَرايا، وعَرايا يَدْخُلْنَ الصَّلْصَالَ...

وَحيدًا كُنْتُ أَرَى، أَتَرَبَّعُ تَحْتَ الشَّمسِ الصَّوانِيَّةِ حَيْثُ يَهُلّ رَمادُ صدايَ، وأُعْلِنُ بَدْئِي مِنْ حَجَرٍ كِلْسِيٍّ:
وَحْدي في القَارِعَةِ المسكوبَةِ حَوْلَ الصمتِ المُتَهَدِّمِ،
وحدي في الصارِيَةِ المكسورَةِ،

وحدي في عاصِفَةِ المعدِنِ،
وحدي في السَّبْخَةِ،
وحدي...

▪ الميت ▪

رَجُلٌ مُقْتَنِعٌ...
عُذْرًا:
رَجُلٌ لا ـ مُقْتَنِعٌ
يَنْظُرُ مِنْ نَافِذَةٍ ويرى أَشْيَاءَ تَدُورُ. يُحَدِّقُ بالْغَيْهَبِ.
يأسى وَهْوَ يُحَدِّقُ. يَنْتَظِرُ الآتينَ ولا آتينَ.
وَيَنْظُرُ
فِي البِلَّوْرِ الشاسِعِ ؛
تَغْرَقُ فِي عَيْنَيْهِ

ذاكرةٌ
.....
.....

لَيْلُ الصَّوانِ على الفَجْرِ يَهُدُّ الفَرَحَ الراحِلَ، والأَعشابُ تُشَقِّقُ غَيْمَ الصبرِ ـ سَتَغْرَقُ هذي الأَرضُ، سَتَشْرَبُ من دَمِهَا عَرَقًا، وَسَيَحْتَفِلُ «الغامضُ» بالفولاذِ. هنا أَتَصَوَّرُ للأَشياءِ عُيونًا ورمادًا يتطاوَلُ نَحْوَ الآخِرَةِ المُرَّةِ، أو أَتَكَسَّرُ في فَجْرٍ مَحْروقٍ بالشَّمْسِ الدكناءِ.

رُوَيْدًا يا آلدَّاخلَ صَبْرَ الموتِ رُوَيْدًا؛ يَتَقَصَّفُ حَوْلَكَ هذا الوطنُ وأَرْحَلُ في غَمْغَمَةٍ صَفْراءَ، يُنَظِّرُني الصبرُ، أُصَبِّرُ جَفْنِيَّ عَلَى حَجَرٍ، أَتَقَطَّرُ والموجُ يَلُمُّ رذاذي ـ وهنا يتشرَّبُني العُشْبُ الخائِنُ، لكني أَرجَعُ مَخْذولاً، وأُعاوِدُ ما عاوَدَهُ الليلُ، أُهَدِّلُ عينيَّ وَتَنْقَبِضُ المرآةُ. ولكنَّ الوطنَ الميِّتَ يَتْرُكُني في النَصِّ وحيدًا، حولي ظَمَأٌ وطَحالِبُ تَسْقُطُ مِنْ فَكَّيَّ. رُوَيْدًا يا آلدَّاخِلَ

صَبْرَ المَوْتِ، سَأَرْقُدُ مَسْكُونًا بـالظُّلُمـاتِ وأَطْرُدُ من قلبي شَعْبًا نَظَّرَهُ الفولاذُ، سَأَطْرُدُ من عَيْنَيَّ الرُّؤيا، وأنامُ على الثَّلْجِ - أغورُ أغورُ أغورُ... سَأَفْنى في الثلجِ وأبقى شَيْئًا لا - مُقْتَنِعًـا. وهنا تُشْطَرُ ذاكرةٌ

وَيَهُبُّ الواقِعُ
في الفولاذِ
يَهُبُّ الواقِعُ
في الثَّلجِ

وأبقى مُنْتَحِرًا بالصمتِ. ألاَ لَنْ يوقِظَ هذا النـومَ حـطامٌ، لن يَـرْبُضَ في «الغـامِضِ» إلا «الغامضُ»، والجَسَدُ المَخْـذُولُ تُبَعْثِرُهُ خـطواتٌ مُغْفَلَةٌ... وأنـا أَتَسَى - أَتَحَقَّقُ بـالنِسْيَـانِ. يَلُمُّ الضَّجْعَةَ كلُّ رمادٍ، حتى يأسَنَ في قلبي ما يَنْتَظِرُ الـرعبَ الآخَـرَ... مُـورِقَـةٌ خـطواتي بـرذاذِ الكافورِ، وهـذا الوَطَنُ القـاسي يُقْعي مُنتظرًا. لكنّا لا نَسْأَلُ، والضَّجْعَةُ يغشاها الزِّفتُ-

وحيـدًا أبقى في النَّصِّ، وحيـدًا أسكُـنُ أشيـائي، وَيَظَلُّ الآتـونَ ضبـابًـا يتحفَّزُ نَحْـوَ سَمَنْدَلَةٍ لا تأتي... آهٍ! تتقاطَعُ حولي الأشكالُ وتَحْتَرِقُ الرُّؤيا في اللفظِ، ويبقى في الغَيْهَبِ رَجُلٌ مُقْتَنِعٌ...

عُذْرًا:

رَجُلٌ لا - مُقْتَنِعٌ

يَنْظُرُ من نافذةٍ ويرى أشياءَ تدورُ. يُحَدِّقُ بالغَيْهَبِ. يأسى وهو يُحَدِّقُ. ينتظرُ الآتينَ ولا آتينْ...

▪ الحطام ▪

«سَيْلٌ بهذا الطولِ
من الناسِ ، بحيثُ ما كان لِيَدْخُلَ في عقلي
أنَّ الموتَ قد طوى هذهِ الكثرة».

(دانتي)

كَمَنَتْ وُعولُ الليلِ خَلْفَ دمٍ
وأَضْرِمَ في ضَراوتِها الضجيجُ.
كَمَنَتْ وُعولٌ، وارتَمَتْ خيلٌ على الأشلاءِ
يَجْلُدُها أَجيجُ
وتلفّظَتْ رُؤْيا، فهاجَ الصمتُ مَحْمومًا يَمُجُّ حريقَهُ

العاري على القَسَماتِ. شَأْ حتى تُهَدَّمَ ناطحاتُ البرقِ،
إنّ العالمَ المهزومَ يَغْتَصِبُ العَشِيَّةَ، والبراري ترتمي في
طَعْنَةٍ مأجورَةٍ، ولْتُعْمِلِ الزلزالَ تَحْتَ الجمرِ؛ شَأْ إنَّ
السَّمَنْدَلَ لَنْ يَهُبَّ، وبينَ أضراسِ الصواعقِ أَلْفُ
مُعْتَصِمِ. سَيَهْدَأُ في جَناحِ العُشْبِ رعدٌ ماحلٌ وتعودُ
أرصفةٌ مُزَعْزَعَةٌ، كما تَتَناقَلُ الأشياءُ بَعْضَ حِكايةٍ
خُسِفَتْ. تُرى من يمتطي «فَتْحًا» ويَحْمِلُ سورَةً بَعْدَ
انحدارِ الضاربينَ؟ هنا سَتَحْتَرِقُ البقيةُ، والهجيرُ سَيَمْحَقُ
الأشلاءَ: لن يبقى رمادٌ بَعْدُ، لن يعدو سَرَابٌ في الخواءِ.

هنا القضايا والخَرَابُ
هنا الضَراوةُ والوداعَةُ والبقايا وَهْيَ تَحْتَضِنُ
الحطامَ،
هنا الرجوعُ
هنا التكسُّرُ واحتراقُ العابرينَ،
هنا الرمالُ،
هنا الدموعُ...
من يمتطي «فَتْحًا» ويَحْمِلُ سُورَةً بَعْدَ انحدارِ الضاربينَ؟

على بَقيَّةِ رَعْشَةٍ سُنَنٌ تموتُ، وفي ضُلوعِ الصمتِ بُرْكانٌ من الأشلاءِ. لاَ يَطَأنَّ هذي الأَرْضَ إلا جَلْمَدٌ، لا يَرْتَدِ الجردَ الخَضِيبَ سوى سَمَنْدَلَةٍ تموتُ... ألا آنهَضِي، يا صاعقاتُ، وفَسِّخِ الأبعادَ، يا طاغوتُ، فالبَعْلُ المهدَّدُ لا يقومُ، وَحَوْلَ أمداءِ الفريسةِ ألفُ ألفُ رصاصةٍ.

كَمَنَتْ وعولُ الليلِ خَلْفَ دَمٍ
وأَضْرِمَ في ضراوتها النجيعُ ؛
خَلْفَ الصدى والصبرِ بُهْلُولٌ يراوح صامتًا
ومدىً يجوعُ

خَلْفَ انتظارِ البرقِ صَمْتٌ لا يُزاحُ. سَتَضْرِبُ الأعمارَ زَوْبَعَةٌ وَتَفْتَرِعُ المشيمةَ، والقناع يُجَنُّ خَلْفَ غشاوةٍ حمراءَ. يا آلهاذِي، ألا قُدَّ السيوفَ من الهَبَاءِ، ويا مراراتُ آنْضَحِي بِالوَهْمِ : لن يلْقَى الصَّدى إلاَّ الصَّدى.

كُومٌ من الأشلاءِ تَقترِفُ الأسى،
كُومٌ تميعُ على السَّرابِ وتلتقي

جَمْرٌ وَفَحْمٌ سَطَّرا حولَ المباضِعِ بَعْضَ أحلامٍ. ولكنَّ النوارِسَ لا تهبُّ وخَلْفَ عاصفةِ المدى رَهْجٌ يُبَرْقِعُ صخرةً

كسلى. ألا لا يَهْدَأنَّ رجومُكِ المجنونُ، يا رُؤْيا، إذا لم تُسْفَحِ الأحلامُ - حتى في بقايا الصَّبْرِ، حتى في الردى نَزْفٌ يَلوحُ.

وعلى جفونِ الأفقِ رَعْدٌ يلتقي رَعْدًا
وظلماءٌ تَبوحُ...

(١٠-أيار-١٩٨٢)

▪ الصلصال ▪

الصدى يَطَأُ أرْضًا من الصلصالِ، والهوةُ تستيقظُ على شَفيرٍ مُغَطًّى بِجُزُرِ الأقنعةِ.

يَنْفَتِحُ الصّلصالُ عن ليلٍ بحجم الشَّفيرِ، تستيقظُ الزَّوْبَعَةُ.

ها يَلُمُّ البرقُ سطوعَ المعدنِ، وَتَرْكُنُ المياهُ إلى حجابٍ يَعْصُبُ لازَوَرْدًا جريحًا. ها تَخْرُجُ النساءُ إلى الصلصالِ، تُحيطُ بِخَلاخِيلِهِنَّ زوابعُ من العقيقِ المسعور؛ تخرجُ النساءُ، ويُلْقينَ على السماءِ بَهْرَجًا صامِتًا، حيثُ الليلُ يُغْدِفُ على بقايا الرَّأْبِ.

يَنْفَتِحِ الصّلصال عن الصّلصال.

جَريحًا أعْدُو، أيُّها المهرجُ، على جحيمٍ أبيضَ فوق صواعقِ الوردِ الكسيرةِ؛ جريحًا أطاردُ الحَدَأَ البعيدَ، جريحًا أثِبُ إلى العصرِ، كما يَثِبُ الأيِّلُ على أنثى مُخَضَّبَةٍ بالبريق. لَكنَّ الهواءَ يَرْصُدُ تاريخَ النَّهْبِ الأكبرِ، والأرضَ تَمِيْدُ تَحْتَ أقدامِ الرَّبْرَبِ. لن يبقى في وجهكَ، أيُّها المهرّجُ، إلاَّ صَلَفُ الطُلاءِ والمعدنِ، لَنْ يَتَحَطَّمَ في وجهكَ إلا شَرَاذِمُ مَرْمِيَّةٌ عِنْدَ طَرَفِ الخَسْفِ؛ لن يَنْهَضَ في وَجْهِكَ إلاَّ الصَّلَفُ والحُطام. آهٍ! آآآآهٍ، أيَّتُها المجزرةُ، يا إهْراقًا من الفِلِزِّ على جُمْجُمَةِ المهزلةِ.

ينفَتِحُ الصَّلصالُ عن الصّلصال،

يَخْرُجُ مقهورًا من زاويةِ الفَجْرِ، مُتْرَعًا برائحة الصنوبرِ والأسِ، وترتدي حولَهُ الغيومُ أشْجَانَها، يَخْلَعُ الفَجْرُ جِبْرَهُ في تَحَطُّم الفضاءِ.

كَأَنَّهُ من خَلَلِ الصمتِ مَعْدِنٌ مُزْمِنٌ،

كأنَّه النحاسُ...

وماذا كانتِ النساءُ يخبئن في أرْحَامِهِنَّ، آنَ تَضَوَّعُ

الثمارُ على رخامِ السماءِ؟ ماذا كُنَّ يخبئن، آنَ كانَ الصَّبرُ يتَكَوَّمُ على جُنونِ الشَّفيرِ، والأَرَجُ يَكْمُنُ في شُقُوقِ الأرضِ؟ لا، لَيَنْتَفِضَنَّ بَعْدَكَ هَلَعٌ يَقُدُّ الحطامَ، لِيَرْتَأَنَّ الهواءُ جرحَ الجمجمةِ. وكَيْفَ لا يَسْتَعيدُ الوَعْيُ ذُهولَهُ، والسَّمَنْدَلُ يتناثرُ فوقَ هِضابِ الصَّلصالِ...؟

أيُّها الكائنُ،

يا داخلاً في حُطامِ الجسدِ!

حَوْلَ الصدى يَهُبُّ النَّفيرُ، وَبَيْنَ السوسَنِ رُؤْيَا تَنْهَضُ نحو بريقِ الأقصى. وأنا، الشَّاهِدَ الدمويَّ لهذا العصرِ الدمويِّ، أُتَرْجِمُ الذُّعرَ ذُعْرًا، وأَنْتَهِبُ قطيعَ الرُّخامِ على حُدودِ النَّذالَةِ المُضيئَةِ. ألا فَلْيَكُنِ الأَفْقُ أكثرَ التماعًا حولَ سريرِ العظامِ والبراقعِ، ألا فَلْتَكُنِ الشَّظِيَّةُ أَوْغَلَ في مسارِ العَضَلِ، فإنِّي أنا الشَّاهِدُ الدمويُّ على هذا العصرِ الصلصاليِّ، أنا أنا المسكونُ بالهبوبِ الدمويِّ، أَتَقَطَّرُ حَوْلَ مدارِ الفجيعةِ، وأَسْكُنُ الركامَ الركامَ... آهٍ أيُّها الأَرَجُ المُمْتَقِعُ على سريرِ الصواعق، لن تهبَّ إلا في المدى الأكثرِ ضيقًا، لن تَسْكُنَ إلا هاويةَ النفسِ؛ والبَهاليلُ التي

تُهَمْلِجُ حول النَّصْلِ، سوفَ تَرْتَدُّ إلى قلبِكَ الأحمرِ، وتُمَجِّدُ بطولَةَ الباطلِ عندَ مُنْبَسَطِ الشفير.

أيُّها الكائنُ،

يا ساكنًا في حطامِ الجسدِ!

كانَتْ «بيروتُ» جُرْحًا على مُنْعَطَفِ البروقِ، تُدَنْدِنُ حَوْلَ خلاخيلِها النساءُ، وتَحْتَرِفُ الصمت والذُّهولَ. كانَتْ تحملُ أَيْقُونَةَ الهَرَبِ وَتَصْطَادُ البريقَ المذبوحَ. لَكَمْ حَمَلْتُ رَسْمَها على شفاةِ الصدى، راكضًا به حولَ المياهِ وبروقِ الأَرَجِ؛ لكنها الآنَ تَقِفُ بيني وبينَ الكائنِ، شَبَحًا صَلْدًا يدخل إلى مَهَبِّ العويلِ -

عويلٌ، عويلٌ، عويلٌ داخلٌ في
آلدمِ، خارجٌ من الدمِ، عويلٌ، عويلٌ
يَصْعَدُ الأتونَ، مُوغلاً
في الطعنةِ، عويلٌ يصطادُ الفجرَ،
عويلٌ،
عويلٌ يَتَبَرَّكُ بقصفِ المعدنِ،
يَنْطَرِحُ على قَهْقَهَةِ الحديدِ،

عويلٌ يَرْفُو المعدنَ بالكائنِ
واللهَ بالجحيمِ،
يَسْتَنْفِدُ الرعدَ حَوْلَ «بيروتَ»، مُمْعِنًا في أحشاءِ الظَمَأِ الشاردِ، وعيونُ الزهرِ تَحْلُمُ بالماءِ:

آآآآه... بعيدٌ هو الكائنُ،
بعيدٌ كما تَتَحَطَّمُ الغيومُ على السَّرابِ الحَجَرِ،
بعيدٌ، بعيدٌ، وفي عينيهِ
رِمَّةُ كَسْلى، بعيدٌ
وَحَوْلَ سحائِبِهِ المُرَّةِ خَلاخيلُ ذُعْرٍ
وصولجانٌ من الليلِ...
بعيدٌ، بعيدٌ،
آهٍ... بعيدٌ هو الكائنُ...

لكنَّ الأرضَ تبقى شَرْخًا في مَهَبِّ الشَّفيرِ. ظَمِىءٌ هو الوجهُ الموحِلُ، ظَمِىءٌ، وفي ظَمَئِهِ بُرودةٌ حادةٌ، وزوبعةٌ من الضَّباب.

آآآآه!
أيُّها الكائنُ،

يا ساكنًا في حُطامِ الجسدِ!

وأبقى، وتبقى حولي صواعقُ المعدنِ، يبقى الطيشُ والنَّهْبُ الشاردُ، تبقى الهوةُ والشَّفير، ويَفْرُكُ يديهِ في آخرِ المدى الصلصالُ. أبقى، وحولي طَمْيٌ كافوريٌّ؛ أبقى، أنا الشاهدَ الأبديَّ لهذهِ المذبحةِ العصريةِ - أشهدُ أنَّ المهزلةَ لن تكونَ إلا أكْثَرَ هَزَلاً!

ويبقى حولِيَ الكائنُ
مُحاطًا بالصلصال،
تبقى حولِيَ الأرضُ
مَحْبُوكَةً بالصلصال،

يبقى حولِيَ المدى المنهوبُ والله المشتعلُ وكلُّ الشَّرْخِ والصلصالُ،

لكنَّني وحدي، أَشْهَدُ أن المهزلةَ لن تكونَ إلاَّ أكثرَ هَزَلاً، وأُمْعِنُ في اخْتِراقِ الذُّهول، حاملاً بين يديَّ بعضَ الرمادِ، وَصَلَفًا لا يرويهِ إلا هبوبُ المعدن.

وداعًا أيُّها الكائنُ،

وداعًا يا حُطامَ الجسدِ،

إنَّني
مُوغِلٌ
في
صَلْصَالِ
الأَرْضِ . . .

ملحق :

- أَشياءُ الصلصال -

١ - الهاوية:

لماذا، عندما تَنكسر الشمسُ على الرَّذاذِ المعدنيِّ، تَفْغُرينَ فَمَكِ، وَتَتَهَدَّلُ فيكِ اندلاعاتُ الفِلِزِّ؟ وعندما يَسْكُبُ الكرى مساءَ الصهيلِ، تنحدر الحدآتُ على جفونِ الفضاءِ الكسيحِ. لكنَّ وَجْهَكِ الحاضرَ أَبَدًا يُمَهِّدُ المسافاتِ أمامَ الذهولِ الكبيرِ. وَيَنْهَضُ «الغامضُ» من تَذْبِيْكِ، داخِلاً إلى المفاصل، حيثُ لا شيءَ إلاَّ حقولُ النحاسِ . . . أَيَّتُها الغريبةُ المألوفةُ، كوني أَكْثَرَ امتلاءً عندما تَصْطَكُّ الجماجمُ، وَتَرْحَلُ المَلاَلاتُ إليكِ كالسُّفُنِ الغارقةِ.

أيَّتُها الذاهبةُ في جُفونِ النُّعاسِ الكونيِّ، أيَّتها الداخلةُ إلى مذبحةِ الجفونِ المُغْلَقَةِ، فِيضي على هذا المدى الصلصاليّ، وَلْيَكُنْ خُشوعُكِ المصعوقُ صورَتَكِ. وعندما يَهُبُّ المساءُ بين البَلُّوطِ وَزَهْرِ اليَقْطِين، لن تجدَ شعوبُ النَّقْطِ إلاَّكِ مأوىً، فتكْسُرُ جفنيها، وتنامُ على حافَّتِكِ السرمدية. . .

٢ . ساحات الفباء:

«إلى محمد بَلُّوط»

رفوفُكِ اللولبيةُ تَنْبَسِطُ على الفراغِ الصفيقِ، وَتَرْقُصُ البهاليلُ على حدودِكِ، مَطْلِيَّةً بالقارِ والصدى. وحينَ يَسْتَيْقِظُ النومُ في المدى الغارِقِ بالمساءِ، تَتَقَوَّسُ دروعُ الليلِ تحْتَ أشعَّةِ المعدنِ، وترفو ملامحكِ الصبرَ بالجرحِ.

ويخرجُ «مُحَمَّدُ»، بَعيدًا كالمسافةِ، خاشِعًا بَيْنَ أَلَقِ الذُّهولِ وحلكِ الجبروت، يركض مَصْعُوقًا في تَمَراتِكِ اللولَبِيَّةِ. لكنَّ الفراغَ يُغْرِقُ خطواتِهِ في المدى، وعينيهِ

تغرقانِ في العُشْبِ، وعَلَى صَدرِ الحلم جراحهما.

مساحاتٌ.. مساحاتٌ.. وجهُها مُلَفَّعٌ بالنحاسِ وغبارِهِ، وجهُها الشفيرُ بين العَظْمِ والعَظْمِ. أيَّتُها الضاربةُ في صَفَاقَةِ الفراغ، على حدودِك يُتْلى الزمنُ مَعْدِنًا مَعْدِنًا، ويحمل الفجرُ المَلْجُومُ صَبْرَهُ القاحلَ إلى بِطاح الشُّروخ.

يا مساحاتٍ من الصّلصالِ الأبديِّ،
يا وجهًا بائِدًا لصلاةِ النحاس...

٣ ـ الجسد:

تنبتُ في الشَّرْخِ، أعمَى كالخفاشِ، وَتَحْتَضِنُ وعورُك سطوعَ الأسلحةِ، لكِنَّ مساحَتَكَ المجهولةَ تنفتحُ في المسامِّ، ويبدأ الهجرُ وَئيدًا بين المفاصِلِ المُخَلَّعَةِ. والرُّبوعُ التي أتْلَفَها فَيْءُ الكَرَى تَعْوِي في عروقك، وتصطادُ الزَّنْبَقَ والصَّقيعَ.

أيُّها المقهورُ آنَ تَمْجُنُ الأرضُ، على بُعْدِ خيانةٍ واحدةٍ تُثِلُّ أبعادُ القرونِ، تعوي الذُّؤاباتُ في مهاويكَ؛ على بُعْدِ

خيانةٍ واحدةٍ يَهْدأ القَطَا في مَفَاوِزِ التِّيهِ، وتَذْهَبُ الطعنةُ بعيدًا بعيدًا...

لكنْ، ما زِلْتَ تحتفظُ حَوْل أطرافِك بـأيْقُونَـاتٍ من الكـافـورِ، وتحمِـلُ في رَعْشَتِـكَ وَلَـعَ الـطيشِ بـالمعـدنِ والصلصال...

سلامًا أيَّتُها الخيانةُ النُّورانيَّةُ،
سلامًا أيَّتُها الطفولةُ المجرمةُ،
سلامًا أيُّها الوطنُ الذي لا يَسْتَفيق!

٢ ـ كتاب ملوك الطوائف

«كنتم صغارًا تافهينَ
مدى الديارْ
صرتم صغارًا تافهينَ
بلا ديارْ.»

(خليل حاوي)

▪ ملوك الطوائف ▪

▪ ١ ▪

ونشأ على أنقاضِ الخلافة الأموية مجموعة من الدول الصغيرة كان همّها التنازع فيما بينها... ساسها زعماء وأمراء عرفوا في التاريخ عند العرب بـ«ملوك الطوائف». (تاريخ العرب).

مَخَّ الحديدُ وجوهَكُمْ
فتصوّرت أشلاؤُها جوعًا
وقد هَبَّ الرّكامُ،
وَلَفْلَصَ الزّمنُ الوَبيلُ

على سُكُونِ رَمَادِهِ
وآجْتاحَهُ وَطَنٌ حُطامُ...

مِنْ أَيْنَ؟... فالعصر آنتهاكاتٌ سَرَقْنَ ملامحَ آلتاريخ، والخَطَواتُ شوكٌ. كلُّ ما هدأت سَريرتُهُ يمرّ على الرمادِ، وها وجوهُكُمُ يقنّعها المصيرُ ـ

فَلْيَهُبَّ العصرُ... إنَّ مرارة الشمس التي آنفتحتْ على أشيائنا تمضي، ويمضي خَلْفَها عَصْفٌ أخيرُ.

فَلْيَهُبَّ العصرُ... بينَ تَفَتُّح المجهولِ والرعد الذي آنْتُهِكَتْ بسالتُهُ تثاءَبَتِ الخطى، وَمَضَتْ دروبُ الوعدِ تسقط في ضميرٍ بعثرته كُسورُهُ... هذي عصورُ القادمينَ من الرمادِ تغيضُ راياتٍ بقلبي: هُبَّ، يا صَلْصَالُ، وآحتضنِ الدماءَ، وَشَأْ يَكُنْ مِنْ صَوْلِكَ الداجي صفيرُ.

وتهبَّ صاعقةٌ، تغيضُ على المداخلِ... ها عصورُ آلوعدِ ذابت غِبَّ أقنعةٍ وسَرَّحَتِ الحصارَ، وها مررتم بين أزمانٍ مخلَّعَةٍ فطأطأتِ الرؤوسُ شموخَها؛ سيكون ما يُدني حطامَ العصرِ مِنْ هَوْلِ الهبوبِ، سيولدُ التاريخُ مصطدمًا بأحصنةِ الهباءِ... فَهُبَّ... هُبَّ، يُها الحديدُ، ومُرْ يَقُمْ

زَبَدٌ بأمواجِ البحارِ وَيَصْدَعُ الأشياءَ في حجر الهديرِ
وَلْيَكُنْ موتٌ بموتٍ،
فالطوائفُ أَرَّخَتْ لضميرها لَهَبًا
وأدمنتِ المساءْ...
هذا أوان الشَّرْخِ
فَلْيَكُنِ الهَبَاءْ...!

* * *

من أين أبدأ الخطى؟

هَهُنا تنامُ المَلامح على الأقنعة ـ يَصير القناعُ وَجْهًا، تَصير الأرضُ دَمعًا بحجم المَهْزَلة. ويخرجُ القَهْرُ من كهوف الليلِ، تَمضُون إليه ـ ما أطولَ آلعصرَ الصَّلْصَاليَّ، ما أثقلَ النسيم!! ـ ههنا ينفجر التساؤل، ينصدع التُرابُ/ ينقسم.. ههنا أنتم: وشاح من الغروب على مَشْرِق الأمل. قد تدخل الشمسُ في ورق التوت، ويخرجُ الزوجان، قد تُقْضَمُ الثمرةُ فَيُقْفِلُكُمْ سيفُ النار... آآآه! ما أطولَ العصرَ الصّلصاليّ، ما أروعَ الدّماء...!

بيني وبينكم أشلاءُ التاريخِ آلمكسور،
وكلُّ كلُّ هذا الأملِ القاسي!

من أين أبْدَأُ الخطى؟

تَعَبٌ على ضَريح الفضاء...
تَعَبٌ على ضَريح الأرض...
وفي هُبُوب الصَّدى
تَعَبٌ... تَعَبٌ...

* * *

بين وجهي وبينَ التُّراب الذي يَنْفَسِخُ تَحْت أقدامهم
صَدَأٌ وتاريخٌ من الحُطام.
كانَتْ حولَكم بُقَعُ الفَضاء الممزَّق وأشلاءُ الشمسِ
وهي تَفْضَحُ الذاكرةَ،
والذاكرةُ جدارٌ لأقنعةِ التاريخِ المَهْزوم -
هذا وَجْهُكُمْ

نَفَقٌ يؤدّي إلى الصدى،
والصدى انعكاسٌ لِذاكِرَةِ الأقْنعة.

والظلامُ وِشاحٌ، جِدَارٌ للأبَدِ المحروقِ بَيْنَ وُجوهِكُمْ وَالأرْض.

بينَ وجهي وبينَ الترابِ الذي يَنْفَسِخُ تحت أقْدامِكُمْ
صحراءُ من التَّعَبِ والرَّماد
وكلُّ... كلُّ هذا الدَّمار...

* * *

كانَ تَعَبُ الخُروجِ يَهُبُّ في عَاصِفةِ الحَديد، وعلى النجومِ مساحاتُ فِطْرٍ. كان تَعَبُ الخروجِ أرضًا لإنقاضِ وَجْهِكُمْ، وفي المدى طَعْنَةُ الصَّبر.

بين آخْتِراقِ الأبَدِ وَعَويل الأرْض
تَعَبٌ...
بَيْنَ الفَضاء الفَارِغِ والفَضاءِ الفَارِغِ
تَعَبٌ...
نامي، أيتها الذاكرةُ، نامي...
لَنْ تَنْهَض ريحٌ في سَديم الطَّوائِف،
لَنْ يكون عَرْشٌ لِلْملوك بَعْدُ،
نامي...!

* * *

مِنْ أَيْنَ أَبْدَأُ الخُطى؟

كان الماءُ يُحاولُ أَنْ يَفْتَحَ ألوانَهُ لِلأَشْياء، كَانَتِ النجوم تُحاول أن تَدْخُلَ زوايا العَتَمة، لكن الرملَ رايةٌ تُلَثِّمُ الأَثير، وَحَوْل الذاكرة سُكْنى الفَرَاغ...

أجل، أيها المدى، في رِتاجكَ المُنْخَلِعِ قَهْقَهَةُ الجَماجم وتَعَبُ المُحاربين، في رِتاجِكَ البَاهتِ يَكتب الحديدُ مَلحمة الوطن، ويُقْفِلُ السديمُ أسرارَهُ على مَرَضِ العافية...

مِنْ أَيْنَ أَبْدَأُ الخُطى؟

* * *

وَقَعَ السديمُ على مساحاتِ التَعَبْ!

لِضَرائح الذكرى عَويلٌ... مُدَّ وجهَكَ، يا رمادُ، فَلا نَوافذَ تُدْخِلُ النيرانَ؛ مُدَّ صَقيعَكَ الحَجَريَّ في رَحِمِ التُرابِ، ومُرْ يَكُنْ نوم طويـ... يـ... يـ...لٌ! مُرْ تُهَدَّمْ كلُّ جَبْهاتٍ شَمَخْنَ فما تَرَكْنَ سوى بـروقٍ أَيْنَعَتْ شجرًا لَهَبْ.

وَقَعَ السديمُ على مساحات التَعَبْ!

كان الزمانُ يمرّ محتضنًا نهايَتَهُ (قَعَدْتُمْ في الصباح قَرَأْتُمُ الأَخبـارَ. عـايَنْتُمْ مَـوَاقِعَكُمْ وعـايَنْتُمْ ضَبَـابًـا يَخْتَـلي بالفِكْرِ...). نَـوْمٌ وآحْتراقُ مَسَـافَةٍ. نَـوْمٌ وَمِطْرَقَـةٌ من الفُولاذِ يَرْفَعُها القَتَامُ.

فَلْيَكُنْ ما كانَ:

وَجْهِي بارِدٌ،

والدربُ أَعْصَابٌ رُخامُ.

فَلْيكنْ ما كانَ:

أَقْدامُ المدى كُوَمٌ من التاريخِ

يمسحها الصدى... وينامُ!

٢٠

مَنْ قال يُخْرِجُني الرمادُ إلى الرمادِ، وتنتهي أرضي على عينيكُمُ؟ مَنْ قالَ يَبْتَدِيءُ الخروجُ مِنِ آحْتضاراتِ آلْحُطامِ؟

بيني وبين الأرْض أوجُهُكُمْ وما نَفَضَتْ تواريخُ المهازل حِينَ دَثَّرَها الحديدُ، وأرَّخَتْ أبَدًا من الصَّلْصالِ يَهْزُج في الرُّكامِ

من قال إنَّ وجوهَكُمْ لَيْسَتْ تَمُرُّ على آلْفضاءِ فَيَفْتَحُ

التاريخَ في ميثاق مُحْرَقَةٍ؟ يجيءُ الليلُ نحوي حاملاً أطْمارَهُ وينامُ حيث تنامُ ذاكرةٌ من الشعبِ المُضَمَّخِ بالجراحِ. هنا آنْكأتُمْ فآدْلَهَمَّتْ رؤية، ونما آلحديدُ على غُيومِ النارِ. كُنْتُ أخيط ما تَرِثُ الحَضارةُ من حِجَارَةِ إرْثِها الملعونِ، كنتُ أمُرُّ في عَطَشِ آلْمَدى فَيَمُرُّ رَعْدٌ طرَزَتْهُ جِرَاحُهُ. مَنْ قال إنَّ الخارجينَ مِنَ الذُّهُولِ يُخَلِّفُونَ شُعورَهُمْ بَيْنَ الجَلاميدِ البعيدةِ؟ ها تَرامى الجُرْحُ في سَهْلِ النُّجُومِ الباكياتِ، وها آرتيمتُ فأرَّخَتْ أرضي لأرضي وَجْهَها -

بيني وبينَ الأرضِ أوْجُهُكُمْ
وَصلصالُ التواريخِ التي مَرَّتْ على أيديكُمُ
فَهَوَتْ، وحاصَرَ وجهَها الموتُ الزؤامُ.
بيني وبينكُمُ الترابُ
وكلُّ ما ترك الحديدُ،
وكلُّ ما بَنَتِ العِظامُ.

كم كنتُ أملأُ رؤيتي بالضوء، لكنَّ المدى
يَهْوي على مِيثاقِ جَمْهَرَةٍ يُحَطِّمُها الصدى

وأمرُّ في رُؤيا تُهَدْهِدُ لَيْلَها حَيْثُ ٱرْتَعَى اللَّبْلابُ أيامَ الجراحِ ؟

فلا أمرُّ ولا أنامُ.

هذا ٱحتضارُ رمادِكُمْ ـ مَنْ قالَ يُخْرِجُني الرمادُ إلى الرمادِ؟ مَنِ ٱنتهى مِثْلَ ٱنهدامِ صاعقٍ يروي ٱنهدامَ المعدنِ المَصْهورِ. . . ؟ آآآه، قد يقودُ الليلَ قبرُ المستحيلِ إلى فضاءٍ فارغٍ ، قد ينتهي وجعُ الجِدارِ إلى جِدارٍ مُقْفَلٍ. . . آه، لَوَ ٱنَّ ٱلجمرَ يُنهي موتَهُ بفتوحِهِ. . . !

عُشْبٌ يُحَطِّمُ تُرْهاتِ الذاكِرَةِ،
وَمَدًى يمرّ على دُروعِكُمُ
فَيَفْتَحُ لي مَديحي
وَيَقْرَأُ كلُّ نفسٍ في مَديحِ الجمرِ،
يَقْرَأُ لي ضريحي. . .
وَيَهُبُّ في خَسْفِ العيونِ الماكِرَهْ.

مُدّي رمادَكِ، يا نُفُوسُ، وهُبَّ، يا فولاذُ، لَنْ يَطأ الثَّرى إلا سُهادُ المُسْتحيلِ. لَوَ ٱنَّ وَجْهي طاوَعَتْه دُمُوعُهُ إذًا لَهَوَتْ كَواكِبُهُ على مِيثاقِهِمْ، وَلَوَ ٱنَّ بينَ عظامهم رَمَتِ

القبورُ رُفاتَها لَتَكَوَّمَ التاريخُ في حجر وفجّر نَفْسَهُ. آه، آهدأي، يا نفسُ، إنَّ الشاهدَ المجنونَ يَرْتَجِلُ البقيَّةَ، يَفْتَحُ الأنقاضَ في أَبَدِ التساؤُلِ. لو يُقيمُ رَمادُهم سَدًّا من الليلِ ٱلسَّميكِ على وُلوجِ الرُّؤْيَةِ البَلْهاءِ، لو أنَّ الضَّحايا أَرَّخَتْ أَعْمارَها للجُرْحِ ، لامْتَصَّتْ حُطامَ الشرقِ، وَهْوَ يَذُوبُ في صَحْراتِهِ. . . مُدّي رَمادَكَ، يا نفوسُ، وَهُبَّ، يا فُولاذُ، لَنْ تَبْقَى طَحالبُ للخُروجِ ؛ أنا ٱلنُّفوسُ تُهَدْهِدُ الْيَأْسَ المُطَرَّزَ حول أَطْماعِ الطَّوائفِ، والرياحُ تَقومُ من قُمَمِ الزمانِ إلى بلادٍ لا تكونُ،

شُدّي رِحالكِ، يا نفوسُ، على رمادِ العمرِ،
ها هوذا الجنونُ
يأتي، ويَرْقُدُ في صُخُور وُعورِهِ مَوْتٌ حَنُونُ ـ
وَطَنٌ يُسيِّجُ نَفْسَهُ بالمستحيلِ
وَيَحْتَوي وَهْجَ البُقَعْ.

ألصَّمتُ يَتْرُكُ فَوْقَ خَاصِرَةِ الوَجَعْ ـ
للصمتِ أَطْفالٌ وَوَجْهٌ وانتظاراتٌ وأَشلاءُ ضَحايا.
كنتَ رُؤْيا.

غَيْرَ أنَّ مداكَ لا يَسَعُ القبيلةَ.
كُنْتَ تَمشي
هادراً بدماكَ تُفْرِغُكَ الخُطى
وتقودُها بَشَرٌ يُفَكِّكُها الحُطامُ
مِنْ أيْنَ تَدْخلُ
والصَّحارى تَرتمي فيها الخِيامُ؟
مِنْ أيْنَ تَدْخُلُ، أيُّها الرائي،
وأفْواهُ الزَّمانِ رِمالُ تاريخٍ،
وتَاريخُ رُكامُ؟

مُدّي رمادَكِ، يا نفوسُ، فإنَّ بينَ النَّصِّ والأرضِ
آنتظاراتٌ تَموتُ. وهُبَّ يا هَوْلَ الطَّواغيتِ العِتاقِ، فلن
يكونَ الليلُ إلا مُوغِلاً بظلامِهِ. هذا آبتداءُ العَصْرِ فَلْيَهْوِ
آلْفَضَاءُ بِيَأْسِهِ. هذا آبتداءُ آلْعَصْرِ فَلْتَقُمِ الذُّنوبُ.
وَلْتَكُنْ عـينٌ بعـينٍ. ليس في طعم الهَـواءِ سـوى
الحُمُوضَةِ.

فَلْتُجَنَّ الرِّيحُ وَلْيَكُن الهبوبُ
هذا آبتداءُ العَصْر: تَخْتَرِعُ الطَّوائِفُ ما يَقُولُ مُلوكُها

أبَدًا، وَيَخْتَرِعُ الشُّحوبُ

ما يَلْغُمُ التاريخَ بَيْنَ القَبْرِ وآلْقَبْرِ. آنتظارٌ بائدٌ، وَحَريقُ
أجْنِحَةٍ تَهُمُّ فَلا تَطيرُ. وُجُوهُكُمْ وَطَنٌ وأحْلامٌ لِمَنْ زَرَعَ
السَّماءَ دُجُنَّةً. آهٍ! آهدأي، يا نفسُ، إنَّ الشاهدَ المجنونَ
يـدخل في مُلُوكِ طوائفٍ حَيْثُ آلمدى حجرٌ وصحراءُ
وشعبٌ لا يقومُ. وُجُوهُكُمْ صَدَأٌ تَرَسَّبَ في العِظَامِ،
وُجُوهُكُمْ تَهْوِي إلى النَّصِّ الجريحِ فَلا يَهُبُّ سَمَنْدَلٌ. آهٍ،
آرتفِعْ، يا جرحُ، وآنْتَهِبِ الفُحُولَةَ، كلُّ أرضٍ أرْخَتْ
لِدِمَائِها، كلُّ آنتظارٍ طارَدَتْهُ حتوفُهُ....

مَنْ يَقْرَعُ آلصمتَ الأخيرَ؟
وَمَنْ يَلُجُّ فلا يرى إلا الرَّمادَ؟ لأنَّكَ وجهي، أيُّها اليَأْسُ
الحليفُ ـ وكَيْفَ لا تمضي عَلى الصَّدَأِ المواصِلِ زحفَهُ وتنامُ
في ليلٍ وقبرٍ مَدَّدَتْهُ وجوهُهُمْ فينا؟ يمرُّ العصرُ محتضرًا،
ويَكْسرُ رَايَةَ التاريخِ، يَكْسرُني.
وَجْهٌ يُطاردني
وَيَنْبُتُ بين أنْقاضي وُجُوهًا...
مَنْ يَلُجَّ فَلاَ يَرَى إلا رَمَـادًا؟ مَنْ يُهَدْهِـدُ لَعْنَةَ

ٱلتاريخِ مِنْ غَيْبٍ تَأَبَّدَ لَيْلُهُ؟ هذا ٱبتداءُ العصرِ، فَٱتَّخِذُوا
قناعَكُمُ وناموا ـ لَنْ يَكونَ الليلُ إلا موغلاً بظلامِه!

أَرْضٌ على أَرْضٍ تَرُدُّ دَمَارَها،
وَٱلرعبُ يَفْتَحُ وَجْهَهُ لِصَدَى ٱلعَويلِ.
أَرْضٌ على أَرْضٍ تَموتُ، وَتَحْتَهَا
زَمَنٌ يُضَمِّخُ جُرْحَهُ فِي هَوْلِ وَعْدٍ مُسْتَحيلِ.

■ ملحق لملوك الطوائف ■

■ ٣٠ ■

١ ■ قبر

عَيْنٌ يُوغِلُ فيها لبلابُ الصَّبْرِ المَحْروقِ
وأُخرى تَرْقُدُ في الليلِ.
ترابٌ يُكْمِلُ لَوْحةَ هذا القبرِ،
ترابٌ يأكلُ هذا القبرَ،
ترابٌ يُغْرِقُ طائفةً تَتَقيَّأُ تَحْتَ ترابٍ...

٢ ـ قبر

في الأحلامِ رَمادٌ ـ
في القبرِ رَمَادٌ.
شَعْبٌ يفتح أحشاءَ الشمسِ
وَيَخْرُجُ من رِئَةِ الليلِ.
رمادٌ لشعوبٍ تَسْكُنُ في مَهْزَلةٍ سَمَّوْها وَطَنًا.
تاريخ يَكْتُبُ طَائفةً تَتَكسَّرُ في تاريخٍ
في القلبِ رَمادٌ
يَمْضَغُهُ طَعْمُ رَمَادْ...

٣ ـ قبر

نَبَشوا.
وجدوا وَجْهًا مَخْصيًّا يَأْكُلُ وَجْهًا مَخْصيًّا...
نَبَشوا.
وَجَدُوا وَجْهًا ينبشُ في وَجْهٍ مَخْصيٍّ...
نَبَشوا.
وجدوا رُعبًا وبلادًا تَبْحثُ عَنْ قبرٍ،
وجدوا رَجُلاً يَطْرَحُ في القبر رُجُولَتَهُ
وَيَصيرُ مَلامَحَ في شَبَحٍ مخصيٍّ
نبشوا.
وجدوا فِلسًا دمويًّا تَتَشرَّبُهُ طائفةٌ
ورَمادًا لِلشَّعب المقهورِ
وأكفانًا للزُّلفى...

٤ ـ قبر

وجهٌ يَتَخَلَّى عن كلّ ملامحِهِ
وجهٌ يتكسَّرُ في وجهِ اللهِ
وَأحلامٌ مقهورَهْ.
وَجهٌ يَنْسى أنَّجُمَهُ
في وَجْهِ مَيْتٍ...
وَجْهٌ يُخصيهِ الفِلْسُ،
وتُخصيهِ آبادٌ مقدورَهْ.

٥ ـ قبر

الأمةُ تَكْسُرُ سيفًا يَحْملُهُ الله.
دروبٌ تُغْلَقُ في الأُمَّةِ.
بين الأُمَّةِ والقبرِ فراغٌ.
طائفةٌ تَسْقُطُ في الأمةِ ـ تُسْقِطُها.
هِيَ ذي الأمةُ
والقبر المفتوحْ.

٦ ـ قبر

صَدَأٌ للوجهِ المَطْموسِ بطائفةٍ مَطْموسَهْ
صَدَأٌ للملوكِ يَتَقَيَّأُها الفكرُ
وحالاتُ الوطن المُتَكَسِّرِ.
أَحْلامٌ للصَّدَأ المَرْمِيِّ على قَبْرٍ مَنْسِيٍّ.
صَدَأٌ لفضاءِ الجَدَثِ المَنْسِيّ.

٧ ـ قبر

الله تَمَدَّدَ في القَبْرْ.
خَلَّى العرشَ لأطماع ملوكِ طوائِفِهِ...

فهرس المحتويات

١ ـ كتاب الشاهد

ـ قصيدة الشاهد ٩
ـ عصر المهرج ١٧
ـ كيمياء موت لعذاب سيزيف ٢٢
ـ الميت ٢٦
ـ الحطام ٣٠
ـ الصلصال ٣٤
ـ ملحق: اشياء الصلصال ٤١
١ ـ الهاوية ٤١
٢ ـ مساحات الغباء ٤٣
٣ ـ الجسد ٤٥

(تَمَّ كتاب الشاهد بين نيسان ١٩٨١ وأيار ١٩٨٢
وتم كتـاب ملوك الـطوائف بـين أيلول ١٩٨٥ وآب
١٩٨٦)

يا ديزيره

«علَقَ الفؤاد بمنظلٍ» تلك مأساة الشّاعر العربيّ يلاحقه الحنظل. فحاضره مرٌّ وماضيه تَمْرٌ والمُنتَظَرُ أيبسُ من صَخْر. وفيما يهدينا الزّمان قطعَ العذاب نهديه الكلمة بمسكها وعنبرها وشعرك، يا صديقي، على الرّغم من إيقاعه العنيف وسَعَةِ مَدٍّ وقِلّةِ وَعْدِهِ (هو احتراق نار وإطلالة رماد ولم يتحوّل إلى نور خالق فرحاً أبدياً) هو شعر الأمّة كلّها بليلها وويلها، بفجرها ونجرها، وشعر الإنسان المعاني وقد طبّن التاريخ بوجهه عين الشّمس وتركه سنداناً تحت مطرقة المتآمرين على الأرض والعرض والحياة وبخاصة صهيوني الأمس القديم والقريب وصهيوني اليوم. وبعد فقد ضفا شعرك وصفا وستكون غداً في طليعة حورنا الخصب وسنديانتنا المنتصب بوجه الرّيح. إنّ وثبَتَك يوقظُ بعضها بعضاً فإلى الأمام واعلم أن العرب كانوا يتمنّون جملاً يمشي رويداً ويكون أوّلاً.. ولا تندمْ لأنّك تتقدّم. وبعد أنتظر أن يلبس شعرنا ثوب الفرح الوسيع والنهضة النهائيّة والانبعاث كي نوقف الرّقص الحزين على قبور الملوك الأحياء والموتى معاً.

الدكتور ربيعة ابي فاضل

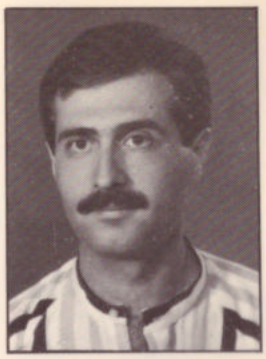

الشاعر في سطور

من مواليد ساقية المسك (قضاء المتن) في لبنان. تدرّج في دروسه حتى بلغ الجامعة، وتخرج من الجامعة اللبنانية يحمل شهادة «الدكتوراه اللبنانية» (وهي تعادل دكتوراه دولة) سنة 1988، وكانت هذه أول شهادة دكتوراه تمنحها الجامعة اللبنانية لطالب فيها. عمل في التدريس، ومارس الصحافة ردحاً من الزمن.

نشر أبحاثاً عديدة في عدد من الصحف والمجلات المختصة المعروفة في العالم العربي، كالفكر العربي المعاصر، ومجلة الباحث، ومجلة مواقف، وسواها. له عدد من المؤلفات، بعضها نشر وبعضها قيد النشر.